محمد زكى عبد القادر

الحركة الدائبة فى داخل المجتمع

المجتمعات البشرية فى حالة تغير مستمر ، وما يبدو عليها فى بعض الأحيان وبعض الحالات كأنه الركود أو التوقف أو التجمد ليس إلا مظهراً لا يدل على الحقيقة . . والحقيقة أن حركة التغيير دائبة ودائمة ، تظل تعمل فى أعماق المجتمع أشبه بالتيارات التحتيّة فى البحار لا تظهر على السطح ، ولكن انعدام ظهورها لا يعنى أنها غير موجودة . وكما أن تيارات الأعماق فى البحار تبدو أحياناً ، إذا بلغت النضج ، على صورة أمواج وهزات على السطح ، كذلك تيارات الأعماق فى المجتمعات متى بلغت النضج ، بدت على السطح على صورة هزات فى المجتمع .

وقد تكون هذه التغيرات تعديلا فى تكوين المجتمع وطبقاته وتقاليده وعاداته وعلاقات أفراده بعضهم بالبعض الآخر ، وقد تكون فى وسائل الإنتاج أو الاستهلاك أو فى الأفكار والمعتقدات أو فى صور الحكم وأساليبه . وقد تكون جذرية تتناول المجتمع من أساسه فتقلبه رأساً على عقب ، وقد تكون تغيرات تتناول السطح ولا تبلغ الأعماق ، تبعاً لما إذا كانت عامة أو خاصة ، ضعيفة أو قوية ، تغييرات دينية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية .

والمجتمع الراكد لا وجود له ، لأن الركود مخالف لطبيعة الحياة ، والحياة

ليست إلا الحركة . وقد تسمع بعض الناس يقولون لك إن هذا المجتمع أو ذاك مجتمع راكد . وهم يعنون مظهره الواضح على سطحه ، ولكنهم لا يعنون الأعماق المستكنة فى داخله ، فإنها لا يمكن أن تكون راكدة لا تتحرك . . قد تكون حركتها بطيئة أو متعثرة متمهلة ، ولكنها لا يمكن أن تكون ميتة لا تتحرك .

وقد روى التاريخ قصة مجتمعات تدهورت أو تبددت أو بادت بالغزو أو القهر والتسلط ، وفناؤها هذا لم يجئ من داخلها ، ولكن جاء من قوة خارجة عنها لم تستطع الصمود فى وجهها ومقاومتها ، ومع ذلك فإن كثيرين من المفكرين ينكرون فناء المجتمع ، أى مجتمع ، على هذه الصورة ، ويرون أنه إذا كان قد تبدد كمجتمع متميز ، فقد ذاب فى غيره من المجتمعات واستأنف مسيرة الحياة فى صورة جديدة ، وطبقاً لهذا الرأى فإن الحضارات لا تموت ولكن تذوب فى غيرها أو تنتقل إليها .

على أن هذا بحث فرعى لا مجال له فيما نحن بصدده وقررناه آنفاً ، وهو أن الحركة الداخلية فى أى مجتمع إنسانى لا تتوقف ، وأنها حركة دائبة مستمرة . تستمد قوتها من بيئة المجتمع وتكوينه ومن تفاعله مع الظروف المحيطة به من الخارج ، وأنه حتى فى الفترات التى يبدو فيها كأنه ميت لا ينبض ، جامد لا يتحرك ، يكون فى واقع أمره نابضاً بالحركة سائراً فى طريقه إلى التغيير والتطور .

وخذ الطبيعة والظواهر الطبيعية مثالا ، فإنها هى الأخرى فى حركة دائبة مستمرة خفية فى أكثر الأحيان ، ظاهرة فى بعض الأحيان ، الزلازل والبراكين والعواصف والزوابع والأمواج العاتية التى تفاجئنا فى وقت نحسب فيه أن كل شىء هادئ ، هل وقعت من غير مقدمات ؟ الزلزال الذى هز الأرض ودمر المساكن ، البركان الذى اشتعل فجأة فأحرق وأرسل الحمم ، العواصف والزوابع والأمواج التى أعقبت فترات سكون شامل غامر ، هل كل هذه الظواهر وقعت فجأة كما يبدو ، أو أنها جاءت تتويجاً لتحركات قديمة فى باطن الأرض أو فى أطباق الجو ، ربما بدأت منذ أشهر أو منذ سنين ؟ الجواب الصحيح الذى يثبته العلم ، أن هذه الظواهر حصاد عمليات دقيقة كثيرة شاملة تمت فى خفاء إلى أن آن لها أن تظهر .

وكذلك الأمر فى المجتمعات البشرية ، تقوم فيها الثورات والانتفاضات

والحركات الشعبية وتبدو كأنها ابنة ساعتها ، والواقع أنها حصيلة عملية طويلة بطيئة معقدة تمت فى المجتمع ، فى داخل المجتمع ، بين طبقاته وأفراده ، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن بلغت مداها فكان الانفجار.

إن نواميس الحياة واحدة لا تتخلف ولا تختلف ، تجرى على الطبيعة ، كما تجرى على الكائنات الحية : الإنسان والحيوان والنبات ، وتأمل كيف يتسلل المرض إلى الجسم ، وكيف يظل فيه خفيًّا يفعل فعله ، ثم يظهر فجأة على صورة ألم أو ضعف أو عجز . تأمل كيف تسرى الصحة والعافية فى هذا الجسم نفسه شيئاً فشيئاً . إن أيهما لا يظهر فجأة ولا يبلغ مساره فى لمحة أو لحظة ، ولكن يحتاج إلى وقت ، المرض كالعافية ، كالنمو بالنسبة للأطفال فى الإنسان وبالنسبة للنبات فى مملكة النبات . والعواطف نفسها ، كالحب والكره والانتقام والغدر والخيانة ، وما شئت من سائر العواطف تنمو داخل النفس والقلب كما ينمو سائر الكائنات الحية ، فإذا بلغت المرحلة التى لا بد لها فيها أن تعبر عن نفسها ، ظهرت وجداً وهياماً أو سهداً أو غيظاً وحقداً أو تفكيراً فى الانتقام والغدر. كل شيء ينمو فى بؤرته ، والمجتمع بؤرة تموج بالكثير من الانفعالات والانتفاضات يكبت بعضها ، لأن الظروف لا تسمح بغير الكبت ، ويأذن لبعضها بالظهور لأنه لم يعد يتحمل المزيد من الكبت .

ولئن كانت النواميس العامة التى تخضع لها المجتمعات البشرية واحدة ، إن مسيرة كل منها تختلف عن مسيرة الآخر تبعاً لظروف نشأته وتكوينه ووضعه الجغرافى ومدى استجابته للحوادث والأحداث ، ومدى ما ثبت فيه بمرور الزمن من صفات وخصائص ، كسبها من الجنس الذى ينتمى إليه والمناخ الذى يعيش فيه ، والموقع الجغرافى والحضارى والثقافى الذى كان من حظه أن يوجد فيه ، فالشعب الذى عاش فى سهل زراعى منبسط يكتسب خصائص وصفات غير الشعب الذى نشأ وعاش فى الصحراء وعلى قمم الجبال ، والشعب الذى عاش راحلا لا استقرار له جرياً وراء الخضرة والرزق ، غير الشعب الذى عاش مستقرًّا يجد رزقاً يفيض عليه باستمرار ودون انقطاع من زراعة ميسرة أو صناعة ناجحة . . والشعب الذى تقع أرضه فى طريق الغزوات ، واضحة فى الدنيا مطمعاً للطامعين ،

غير الشعب الذى وجد فى ركن بعيد عن الغزوات والمطامع . . وهكذا دون مزيد من ضرب الأمثلة تتكون للمجتمع شخصية وتنشأ لأفراده صفات وملكات وخصائص ترجع إلى ظروفه الطبيعية والجغرافية والسياسية .

وقد رأينا كيف أدى اكتشاف البترول فى بعض المناطق إلى إحداث تغييرات كبيرة فى مجتمعها ، أصابت الأخلاق والسلوك والتصرف والعادات الاجتماعية والدينية والمعتقدات السياسية والاقتصادية . . إن المجتمعات حساسة كالرادار ، وأى تغيير يقع على سطحها سرعان ما يتسلل إلى أعماقها ، وأى حادث خارج منها أو بعيد عنها سرعان ما يترك أثره فى داخلها . . وقد أصبحنا فى عصر تقاربت فيه الشعوب واقتربت وتداخلت وتعارفت بالسياحة والإذاعة والتليفزيون والصحافة والكتاب والسينما ، بل أكاد أقول وبالحروب أيضاً ، بالاتفاق والاختلاف ، منبر « الأمم المتحدة » فى نيويورك يجمعهم من شرق ومن غرب ، فلم يصبح أى مجتمع من المجتمعات بمنأى عن التأثر بأى حادث فى العالم ، وإن بدا بعيداً عنه . . الأفكار السياسية والاقتصادية ، والاتجاهات الثقافية أيًّا كانت تترك طابعها على المجتمعات ، تتأثر بها بصورة أو بأخرى وبأسرع مما كان التأثر والانفعال فى العصور السابقة .

إن ما يحققه مجتمع فى مجال التطور والتغيير فى هذا العصر يتم فى زمن أقرب وأسرع عشرات المرات مما كان يتحقق فى عصر مضى ، وليس من المحتم أن يتم التغيير بالثورة العنيفة والتصادم بين الطبقات بعضها بالبعض الآخر ، بل يقع فى بعض الأحيان أو فى أحيان كثيرة بالتغيير الهادئ دون ثورة أو عنف .وانظر إلى علاقة المرأة بالرجل ومقاييس الحب والزواج والسفور ونزع الحجاب والاختلاط بين الجنسين والمصارحة والمكاشفة بالعواطف والنظر إلى الجنس . تأمل أية تغييرات حلت بالمجتمعات فنقلتها من اليمين إلى اليسار ، ومن المحافظة الشديدة إلى التحرر والانطلاق . . كانت المرأة فى بعض البلاد محجبة من رأسها إلى قدمها ، فأصبحت اليوم متحررة من الحجاب وغير الحجاب . كانت لا تظهر فى المجتمعات والطرقات ، فأصبحت تغشى المجتمعات والطرقات . كانت

لا تعمل ، بل كان العمل عليها محرماً وكان عاراً تحاذر أن تقع فيه . فأصبحت اليوم تعمل فى كل مجال وكل مكان . وكان التعلم محرماً عليها فأصبحت الآن تبلغ أعلى درجات العلم والتعليم ؛ وقد ترك هذا أثره على مناهج السلوك والتصرف وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ومقاييس الفضائل والرذائل ، كما ترك أثره على العادات والتقاليد ، فغير منها وعدل وألغى وأحلّ محل ما عدل أو ألغى عادات وتقاليد جديدة .

وهذا مثل من التغييرات المستمرة المتدرجة فى المجتمعات والتى تبلغ ما تبلغ فى هدوء ومن غير ضجة أو ثورة أو تبلغها بضجة أو ثورة لا تبلغ مرحلة العنف العنيف . وهناك أمثلة أخرى على التغييرات المستمرة فى المجتمعات تتناول علاقات الإنتاج والاستهلاك والروابط الأسرية والأخلاق والعلاقات بين الحاكم والمحكوم .

وفى عبارة موجزة تتناول كل صور الحياة فى الداخل والخارج .

وقد يصعب على أى مراقب ينظر من بعيد أن يرى شيئاً من هذه التفاعلات والتغييرات ، ولكن يستطيع أن يحسها ويقيسها إذا عرف مجتمعاً من المجتمعات فى فترة معينة ثم غاب عنه لأى سبب من الأسباب ، عشرين أو ثلاثين سنة أو حتى عشر سنوات ، وعاد إليه لكى يرى ما صنع الله به ، إنه سيرى حتماً فرقاً بين ماضيه وحاضره ، وسيرى التغير واضحاً ، وهو ما لم يكن ليراه لو عاش هذه السنوات العشر أو العشرين أو الثلاثين ملازماً إياه لا يبرحه ، تماماً كما ترى طفلا فى الرابعة من عمره ثم لا تراه إلا بعد خمس سنوات أو عشر سنوات ، فإنك ستراه حينئذ فتى تغير فى كل شىء وما كان فى استطاعتك أن تراه فى نموه المستمر البطىء غير المحسوس لو عشت معه هذه السنوات الخمس أو العشر .

وكما أن بنية الطفل ووزنه ووراثاته وصحته والبيئة التى يعيش فيها والعناية التى يلقاها أو الإهمال الذى يكون من حظه أن يلقاه ومقدرته على التفاعل مع النمو الطبيعى بمرور الزمن أو التأثر بالحوادث الخارجة عنه والطارئة عليه ، كل أولئك يحدد مساره والتغييرات التى تحل به ، كذلك المجتمع فإنه شبيه به لا بد من حساب مكانه فى الدنيا والظروف التى عاش فيها والثروات التى وهبتها إياه الطبيعة والصفات

التى كسبها أو اكتسبها مع مضى الوقت أو ميراثاً من أسلافه الخلص ، أو ممن طرأ عليه من الغزاة أو الوافدين أو المهاجرين ، كل أولئك متفاعلا مع نوع الحكم الذى خضع ويخضع له مفروضاً عليه أو باختياره وإرادته ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى متعاوناً معها أو فى حرب أو خلاف بينه وبينها ، وقدرته على الامتصاص أوعجزه عنه وجنوحه إلى التقدم أوإصراره على الرفض – لا بد أن نضع فى الحساب كل أولئك ونرجع إليه أو نقيس به ما طرأ عليه من تغيير وتطور جذرى أوسطحى ، عميق غامر شامل ، أومقصور على طبقة معينة أو طبقات .

وقد حاول بعض العلماء والمفكرين أن يقسموا المجتمعات البشرية تركيزاً على الجنس واللون ورأوا أن الجنس واللون يحمل كل منهما لأصحابه سمات وصفات ومميزات معينة ، وأنه لذلك يمكن القول إن هناك جنساً أرقى من جنس ولوناً أقرب إلى التقدم والحضارة والتطور وأدنى إليه من لون آخر ، ولعل النازيين فى ألمانيا هم أكثر من روجوا لهذه النظرية فى الثلاثينيات من هذا القرن واعتمدوا كأحد مراجعهم فى هذا الشأن كتاباً ألفه الكونت « آرثردى جوبنيو » فى منتصف القرن الماضى أطلق عليه اسم « عدم المساواة فى الأجناس البشرية » The inequality of Human races ادعى فيه أنه قادر على التمييز بين ثلاثة أنماط من الأجناس : الأسود والأصفر والأبيض ، وراح يخص كلا منها بصفات وأخلاق وقسمات وجه وجسم معينة . إلا أنه سرعان ما ثبت فساد هذا الادعاء ، وأضحت وجهة النظر العلمية المعتمدة فى هذا الشأن تلك التى عبر عنها جوليان هكسلى و ا . ك هاودن فى كتابهما نحن الأوربيين We Europeans وأولهما عالم فى الأحياء والثانى متخصص فى علم الأجناس ، وجاء فيه أن مسألة الأجناس التى اعتبرت بعض الإنجازات الهامة فى القرن العشرين ، منسوبة إلى اكتشافات العلم ، لم تكن إلا أكذوبة علمية .

فإذا أهملنا مسألة الجنس واللون عند الحديث على التغييرات فى المجتمعات وتطورها ، فنحن نفعل ذلك اعتماداً على البحث العلمى وليس انسياقاً وراء العواطف أو الانتماء ، على أن إهمالنا الجنس أو اللون بحسبان أيهما يستتبع خصائص أصيلة ، لا يعنى أننا نهمل أثرهما بحسبانهما كانا ولا يزالان سبباً أوقع بالأجناس

الملونة من القهر والكبت ووضاعة النظر إليها من الجنس الأبيض ما عوق التطور والتغيير فى مجتمعاتها ، وكان عبئاً عليها وثقلا فى أقدامها .

نخلص من ذلك إلى أن كل تكوين اجتماعى يتأثر فى تغييره وتطوره ، إلى جانب حركة النمو الطبيعية التى أودعت فى كل الكائنات الحية ، بالكثير من العوامل يمكن إجمالها فيما يلى :

١ – الموقع الجغرافى والاستراتيجى والمناخ والثروات الطبيعية وكثافة السكان .

٢ – الحرفة الغالبة وما إذا كانت الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الرعى أو الصيد أو خليطاً من هذا وذاك ، وما إذا كانت الأرض سهلا مستوياً ، أم جبالاً وتضاريس ، وما إذا كانت تعتمد على النهر أو على المطر منفتحة على العالم أو منزوية فى ركن منه .

٣ – التطور الحضارى والثقافى والدينى والسياسى والاجتماعى الذى مرت به .

٤ – تاريخها القديم والوسيط والحديث وصلاتها بما حولها ومن حولها وتفاعلها معه ومعهم .

وعلى ضوء هذه العناصر نتحدث عن مصر وما أصابها من تطور أو أصابته من تطور فى تاريخها الطويل العريق القديم قدم الحضارة الإنسانية نفسها حتى أضحت ما هى عليه اليوم .

وقد نشأ العمران أول ما نشأ فى الدنيا فى أحواض الأنهار ، وفى أحواضها نشأت الحضارات ؛ فمصر تعد ، بهذه المثابة ، من أقدم البلاد فى الدنيا ، ويقدر الباحثون أن الثورة الزراعية بدأت منذ عشرة آلاف سنة والمقصود بالثورة الزراعية المرحلة التى بدأ الإنسان فيها يستنبت أغذيته من الأرض ، أعنى بدأ يعرف الزراعة ، بعد أن كان فيما قبلها مجرد جامع للطعام من الأشجار والنباتات ومجرد صائد من المياه والأنهار يأخذ منها ما كان يصادفه دون عمل أو مجهود أو تفكير أو تنظيم ، ثم بدأ يزرع الأرض ويسيطر عليها ويتحكم فيها . وهذه ثورة من أعظم الثورات أثراً فى العالم ، بل تعد أول ثورة فيه ، ومع ذلك تمت فى هدوء وتلقائياً من غير صدام أو عنف .

وإذا صح هذا التقدير ، كانت مصر من أقدم البلاد إن لم تكن أقدمها جميعاً فى معرفة الزراعة وتحقيق ما سمى بالثورة الزراعية فى العالم ، فتاريخها المعروف يمتد سبعة آلاف سنة ، نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد . وفى هذا الزمن السحيق عرفت مصر الزراعة والرى وتنظيم ماء النهر وجمع المحصولات وإقامة المدن والقرى ، أعنى عرفت الحياة المدنية المحكومة بالقوانين والعادات والتقاليد ، وأنشأت مجتمعاً متكاملا ، قائماً على معرفة الحق والواجب والنظام وعرفت الحكومة صاحبة السلطة والحاكم الذى تخضع له وتدين بالولاء . وعرفت الدين والعبادة وأقامت الهياكل والمعابد ، وصحت لها أولى الرؤى فى العالم على الحياة وما بعد الحياة ، ومن فراعينها القدماء من اهتدى إلى فكرة التوحيد قبل أن تجىء بها الأديان السماوية بآلاف السنين . وفى القصة المصرية والأدب المصرى القديم والعبادات المصرية القديمة ، نرى الوصايا والعظات والاتجاهات السلوكية والأخلاقية وفكرة الثواب والعقاب .

وعرفت الحرب والسلام ، غزَت من حولها وغُزيت ممن حولها ، وكانت منذ تاريخها القديم منفتحة على العالم بما لها من سواحل على البحرين المتوسط والأحمر ، وبما يجتازها من طرق برية تصل بينها وبين الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وطوع لها موقعها الممتاز وحضارتها القديمة ونهرها ووجدانها الدينى العميق وثقافتها الضاربة فى أعماق الزمن أن تكون الرائدة فى المنطقة ، تؤثر فيها وتتأثر بها ؛ ثم إن موقعها الاستراتيجى الممتاز جعلها مطمعاً للغزاة من المغامرين والفاتحين ، فتتابع عليها الهكسوس واليونان والرومان ، ثم كان الفتح الإسلامى فدخلها الإسلام ، وكانت المسيحية من قبل صاحبة أديرة وكنائس وقسس وكهنة ، وكانت الإسكندرية مناراً يشع على العالم حينئذ المعرفة والفكر .

وما من بلد حوى من الآثار ما حوته مصر ، وما من بلد اجتمعت فيه الأديان والتقت الحضارات كما اجتمعت والتقت فى مصر ، وإنك لتستطيع أن تراجع تاريخ العالم كله على ثراها ، تاريخ حضارته وأديانه ، تاريخ علمه ومعرفته . . . الحضارة المصرية القديمة ، الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، والحضارة القبطية

والحضارة الإسلامية ، والحضارة الحديثة .

وبعد الفتح الإسلامى ودوله ومذاهبه ومساجده ومعاهده وثقافته وروحه ووجدانه ، جاء الفتح العثمانى بحكامه وأحكامه ، وجاءت المماليك ، ثم كان الغزو الفرنسي ومحمد على ودولته وحروبه وانتصاراته التى بلغ بها سوريا وفلسطين وكاد يدق أبواب الآستانة ، فتحركت أوربا تصد هذا المارد وتكبته وترده عن التوسع ، لا كراهية فى التوسع ولكن خوفاً من إمبراطورية تتزعمها مصر ، فتردّ الغزو لاوربى عن الشرق وترد الاستعمار الأوربى عما كان يعد له من الاستيلاء على مصر وعلى الإمبراطورية العثمانية أوما بقى من أطرافها المشتتة فى الجزيرة العربية وشمالى أفريقيا والسودان .

وجرت الحوادث بعد ذلك متأنية تارة ومتعجلة تارة ، وجاء الخديو سعيد وبعده إسماعيل وتم حفر قناة السويس ، فازدادت أهمية مصر ، وأصبحت مطمعاً أكثر مما كانت فى كل تاريخها القديم ، وأصبح من يملكها أو يسيطر عليها ، إنما يملك ويسيطر على أغلى بقعة فى العالم تفتح أمامه مغاليق الشرق والغرب ؛ وكان الاحتلال البريطانى والمنافسة الحادة العنيفة بين فرنسا وإنجلترا والحسد العنيف الحاد من الدول الأوربية الأخرى الطامعة – كانت مقدمة هذا الاحتلال أو ذريعته ودعواه الثورة العرابية ، وأخمدت الثورة واستسلم الشعب المصرى ، أو بدا أنه استسلم ، ثم جاء مصطفى كامل فأشعل الجذوة التى ظن الجميع أنها انطفأت ، فى حين كانت تتوهج تحت الرماد . وقامت الحرب العالمية الأولى وأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر ، وظنت أنها قضت على كل مقاومة ، وقال كرومر إن مصر لا تصلح إلا أن تكون تابعاً . . وإن المصريين لا يصلحون لحكم أنفسهم . . . ودهش العالم حينما قامت ثورة ١٩١٩ ، وقال بعض البريطانيين إنها شعلة تطفئها بصقة ، ولكن زعامة سعد زغلول استعصت على الإمبراطورية العظيمة ، فخضعت لها وألغت الحماية وأصبح زعيم الثورة أول رئيس مصرى خالص الدم والأرومة للوزارة ، وبعد جهاد طويل لم يتوقف طلباً للجلاء قامت ثورة الجيش فى سنة ١٩٥٢ فحققت الجلاء ، إلا أن المستعمرين حاولوا أن يعودوا

مرة أخرى بالاتفاق مع إسرائيل التى أقاموها رجاء أن تكون شوكة ، توقف نمو الشعب المصرى وتحرره ، فدبروا عدوان سنة ١٩٥٦ ، وكان إخفاقه صدمة قاسية أوغرت صدورهم ، فأعدوا إسرائيل للقيام بعدوان سنة ١٩٦٧ ، وكانت نكسة أصابت الشعب فى صميم وجدانه وكرامته ، وحسب الجميع أنها القاضية ، ثم كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فارتد للشعب الإحساس بالعزة والكرامة .

وإنما أوجزنا فى هذا القدر القليل تاريخ مصر لكى ندل على أنه تاريخ حافل عجيب رهيب ، لم يسبق أن تعرض شعب أو تعرضت دولة لمثله أو لأقل القليل منه وخرجت منه كما خرجت مصر ، قوية عزيزة مثخنة بالجروح ، ولكنها لم تفقد إيمانها بنفسها وروحها ووجدانها الذاهب فى القدم أبعد مذهب .

وسنحاول أن نفسر التغييرات التى حلت بالمجتمع المصرى طوال هذا التاريخ ومراحله المتعددة . . إن الزراعة التى كانت حرفة المصريين منذ أبعد الأجيال ، ونهر النيل الذى لم يقف أو يتوقف طوال هذه الحقبة عن أن يؤدى الخير والنعمة اللذين اعتاد أن يؤديهما لسكان هذا الوادى . . الزراعة والنهر جعلا من هذا الشعب شعباً أصيلاً عريقاً ، يصمد ويصبر ولكنه لا يستسلم ، يكافح ويجاهد ، وينام ويستيقظ ويطاول الظالمين والمستعمرين ولكنه لا يجثو أمامهم . طرد الهكسوس بعد أن صبر عليهم وصابرهم ، وظنوا أنهم أسياده إلى الأبد ؛ وطرد اليونان والرومان والمماليك والفرنسيين والإنجليز والأتراك وظل كما هو ، امتص من امتص منهم وذهبوا وبقى بأصالته وتقاليده وآدابه وآماله وتطلعاته ورأسه المرفوع ، وطرد أسرة محمد على واسترد حقه فى حكم بلاده وهزم الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين حينما كانوا عصبة ، وهزم الاستعمار فى كل أشكاله بالصبر والصمود والإيمان .

امتص من كل الأقوام التى غزته وداست ترابه المقدس بأقدامهم كل ما لديهم من جديد ، ولكنه رفض أن يخضع لهم ولم يستطع أى منهم أن يترك طابعه فى روحه ومعتقداته ، بل جاءوا وذهبوا عنه وكأنهم أشباح الأساطير ، وليس معنى ذلك أنه لم يتأثر بهم ولم يأخذ عنهم أو يتقدم ويرتقى ، كلا ، إنه تفاعل مع الأحداث والحوادث ومع التغييرات القائمة فى العالم فى كل مرحلة من مراحل تاريخه . .

إن الغزو أو الاقتحام بالنسبة له ، أضحى لطول تتابعه عليه كأنه هزة من رقاد ، ولم يزد على أن أيقظ خصائص المقاومة والصمود مع الانفتاح لامتصاص الجديد الذى لا يمس جوهر الشعب ولا صميم وجوده وكيانه . . هذه بعض سمات المجتمع المصرى التى كسبها بالعراقة وطول الالتصاق بالنهر والزرع والحب الذى بلغ حد الإيمان والفناء فى الوطن وطول المعاناة مع الغزاة أو الفاتحين والطامعين ، ومع الحكام الظالمين والمستبدين .

وإلى جانب هذه الصفات والمميزات كسب من الأرض الزراعية أيضاً سماحة الخلق وبشاشة الترحاب والاستعداد للفهم والتقبل للغريب والجديد مع حرص على ذاتيته ووطنه ومقومات كيانه الخاص ، فإذا عجز عن مقاومة الغازى أو الحاكم الظالم المستبد أمهله أو أهمله وبدا كأنه مستسلم للقدر ، ولكنه فى واقع الأمر ، شأنه معه شأنه مع الأرض ، يحاورها ويداورها إلى أن تجود بالثمر ، ومع الطبيعة التى هى عنصر أساسى فى الزراعة يصبر عليها ويرجوها ويدعوها إلى أن تفيض بالخير والبركة ، فإن أصمت أذنها صبر إلى أن يشاء الله بالخير والبركة . . والمتأمل فى تاريخ المجتمع المصرى يرى هذه السمات ظاهرة واضحة ، ويرى فيها تفسير كل ما يبدو غريباً أو غير مفهوم عند المراقبين فى الخارج ممن لا يعرفون سر هذا الشعب ولا عراقة ما ثبت فيه على طول الزمن السحيق الذى عاشه ، وكاد أن يعايش الدهر فيه : انتفاضه ضد الغزاة حتى طردهم ، امتصاصه الأديان والمعتقدات وتقديسه الإيمان بالله موجد الأرض والسماوات ، انفتاحه على العالم حوله دون تعصب او تحيز أو انحراف نحو القسوة والدم . . . وجدت فيه المسيحية أرضاً ، ووجد فيه الإسلام أرضاً ، وعاشت فيه اليهودية فى سلام لم تعرف مثيلا له فى أى بلد من بلاد العالم . وبعض سر هذا الوطن أنه امتص الطارئين عليه ، فاتخذوه وطناً ، ولم يستطع أحد منهم أن يحوله عن مسيرته أو يأخذه لصفه .

الأتراك والمماليك ومحمد على وأسرته ، على الرغم من أنهم كانوا مسلمين ، ينتمون إلى دين الغالبية الكبرى من أهله ، وأقاموا به دهراً طويلاً ، أنشأوا المدن والمساجد والقصور والتكايا وتقربوا إلى الشعب بكل أسباب التقرب —

ظلوا فى وجدانه غرباء عنه لأنهم نظروا إليه كأنه الأدنى وهم الأعلى ، فظل بهم يداورهم ويسايرهم ويحاورهم ، ويقاومهم كلما أتاحت له الظروف أن يقاومهم ، إلى أن انتصر عليهم بالصبر والسخط والرفض . . . سر هذا المجتمع هو الرفض الظاهر أو الخفى ، الهادئ أو العنيف ، الرفض بالسلب أو بالإيجاب ، ولكنه فى كل الحالات لا ينسى حقه ولا وطنه ولا كرامته ، مهما يطل الأمد .

وانظر إليه حينما قاوم الحملة الفرنسية ، وظل بها يداور ويحاور ويسكت ويضج ويهدأ ويثور إلى أن تخلص منها وخرجت صفر اليدين . . وفى هذه الحملة وأمثالها رفض الشعب التسلط والقهر ، ولكنه قبل منها ما اتصل بها من تنوير وفتح للعقول على الجديد الذى لا يتعارض مع إيمانه وتقاليده وآدابه ومناهج سلوكه .

وانظر إليه حينما قامت الثورة العرابية ووقع الاحتلال البريطانى ، وبدا كأن الشعب فقد القدرة على المقاومة أو الرغبة فيها . . هل حدث هذا أو ذاك ؟ الجاهلون بطبيعة هذا المجتمع وظروفه وتكوينه ونشأته وتاريخه ظنوا هذا وذاك . . ولما قامت ثورة ١٩١٩ دهش البريطانيون خاصة ، والأوروبيون عامة ، وراحو يبحثون عن عشرات الأسباب التى أشعلت هذه الثورة دون أن يهتدوا إلى السبب الحقيقى لها . ولم يكن سوى ما ركز فى هذا الشعب من خصائص ومميزات وأسلوب للاحتجاج والرفض وإحساس دائم واضح ، أو غير واضح ، بالغيظ والسخط إلى أن واتته الفرصة وأدرك بسليقته أنها الفرصة التى يجب ألا تفوت ، فهبّ وكأنه يستيقظ من رقاد ولم يكن هناك رقاد ولا استيقاظ ، إنما كان إصراراً خفيًّا دائماً ظل يفعل فعله فى واقع المجتمع وكيانه إلى أن انفجر ، أشبه بالزلزال ينمو شيئاً فشيئاً تحت الأرض إلى أن يرج سطحها .

وحينما قامت ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ، دهش الكثيرون كيف وقعت وكيف كسبت منذ اللحظة الأولى تأييد الجماهير وتحمسها ، ولم يكن هناك مجال للدهشة إلا لمن لا يعرفون طبيعة هذا المجتمع وطبيعة العوامل التى تتفاعل فى داخله .

ووقعت الثورة فى أخطاء ، وهو أمر طبيعى ، وقعت فيها كل ثورة ، وأحس بها الناس وتحدّثوا عنها ، ولكنهم كتموا الحديث والإحساس حتى ظن البعض

أنهم قبلوها أو رضوا بها . ولكنها فى الواقع ، جرياً على طبيعة المجتمع المصرى ، ظلت تسرى بينهم كالتيار إلى أن تهيأت الفرصة للتصحيح ، فلما أعلنه الرئيس أنور السادات كانت الفرحة الغامرة التى دلت على أن شيئاً لم يفت الشعب ، وأنه لاحظ الخطأ وقاومه ، إن لم يكن بالضجيج والإعلان فبالصمت والسخط ، وهذه سمة واضحة من سمات المجتمع المصرى . لا شىء يقع إلا ويترك أثره فيه . . ولا خطأ ولا اعتداء ولا عدوان يقع دون أن يتسرب إلى أعماقه ويفعل فعله فى المدى الطويل . . وما يبدو عليه أحياناً كأنه انتفاضة مفاجئة ليس إلا إنضاجاً لإحساسات ومشاعر وانفعالات قديمة واستجابة لأحداث وحوادث وقعت وظن الجاهلون أو من يأخذون الأمور بظواهرها كأنها مضت وانقضت ولم تترك أثراً ، ولا ينتظر أن تترك أثراً .

وقد أنجبت مصر قادة وزعماء من الطراز الأول مدنيين وعسكريين قادوها فى الأوقات العصيبة ، أنضجتهم على طول تاريخها القديم والوسيط والحديث ؛ والانتفاضات والثورات الحديثة أوضح مثل على التجاوب الأصيل الأمين بين الشعب وزعمائه . حتى لا يكاد الإنسان يعرف من الذى أخذ أو أعطى أكثر ؟ من الذى أيقظ الآخر ؟ هل هو الشعب أو الزعيم ؟ . . كانت عملية امتزاج بارعة بين المجتمع الذى ماج بتيارات عميقة أمداً طويلاً أو قصيراً حتى إذا آن للبخار المكتوم أن ينفجر تولاه الزعيم أو القائد الذى اختاره القدر ليتم التفجير على يديه . . لم يكن شىء يأتى من خارج المجتمع . . لا الزعيم ولا القائد أتى بشىء دخيل على المجتمع ، ولا المجتمع تفاعل وانفجر بشىء دخيل عليه . كل منهما : الزعيم والمجتمع ، ينتمى إلى أرومة واحدة ، إلى غرس واحد ، كان صوت الزعيم فى ارتفاعه وصفائه ونفوذه ، آخذاً فى الارتفاع والصفاء والنفوذ من الشعب ، فيه اجتمعت القوة والعزة والشجاعة والتضحية ، ليست منه ولكن من الشعب ، وحتى إذا كانت فى الظاهر منه فقد نمت فيه كما نمت فى الشعب ، كان أشبه بالغرس يرتفع عن الأرض ويطاول السماء علوًّا ، وليس فيه شىء لم يأخذه من الأرض التى أنبتته وكفلته وغذته .

أحمد عرابى والشيخ محمد عبده وعبد الله النديم ومحمد كريم ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وجمال عبد الناصر وأنور السادات ، لا أحد منهم إلا وهو ينتمى انتماء خالصاً كاملاً لهذا المجتمع وتربته . تكامل معه وكمل به .

وفى أوقات المحن ، فى أوقات الضمور والخوف والاستكانة والسكون ، كان الجاهلون يظنّون أن الشعب مات ، وأن المجتمع عقم ، وأن السكون سكون القبر ، والخوف خوف العجز ، والاستكانة استكانة التسليم ؛ ثم يتبين لهم ولغيرهم أن المجتمع كان يغلى من الباطن ، ويضطرم اضطرام الماء تحت النار المحرقة ، لا أحد يسمع الصوت ولا يحسّ الركز ، حتى إذا بلغ الماء درجة الغليان كان لا بد أن يبحث له عن متنفس . . المقدمات هى التى تغير المجتمع وليس الحادث نفسه ، أما هذا الحادث سواء كان ثورة محدودة أو ثورة شاملة ، أو كان انتفاضة محدودة أو انتفاضة شاملة فأثره يأتى فيما بعد ، وهو لا يأتى فى يوم ولا فى شهر ولا فى سنة ، إنه يمتد عبر زمن أطول يستمر تفاعل المجتمع خلاله شيئاً فشيئاً .

سبق ثورة أحمد عرابى سنوات من الكبت والازدراء للشعب وسوء المعاملة والتفريق فيها هى التى أدت إلى تغيير المجتمع ، فوقعت الثورة ؛ وما سبق ثورة سنة ١٩١٩ ، سنوات الضغط والقهر والظلم والاعتداء على كرامة الوطن وإذلاله هى التى أدّت إلى تغيير المجتمع فوقعت الثورة . . أما أثر الثورتين فتلاهما ، واستمر يظهر من وقت إلى آخر على طول سنوات عدة . . ثورة أحمد عرابى – على الرغم من أنها لم تؤت الثمرة المرجوة منها ، بل أدت إلى نكسة أليمة – كانت هزة عنيفة رجّت المجتمع رجًّا ، استمرت آثارها خفية تحت الكبت وتسلط الاستعمار إلى أن كان الانفجار الوطنى بظهور مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان الكلام عن الاستقلال الاقتصادى وتغيير الأخلاق والسلوك والتعلم وإنشاء الجامعة الأهلية والدعوة إلى إنشاء الجمعيات التعاونية ويقظة الشعور بالكرامة والاتجاه إلى الحضارة الجديدة فى أوربا . وثورة سنة ١٩١٩ – على الرغم من أنها لم تحقق كل أغراضها – بث فى الشعب روحاً قويًّا ظل ينمو وينمو ويشمل الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية كافة ، فكان من آثارها إرساء أول حجر فى الاستقلال الاقتصادى ،

وإرساء أول حجر فى تحرير المرأة وتحرير العقول ، وبداية التخلص من الأساطير والخرافات وتنقية الدين مما دخل عليه وشابه ، وانتشار الوعى وإدراك حق الشعب والمطالبة الدائبة بالديمقراطية والدستور والمناداة بالمساواة بين الجميع والدعوة إلى العدل الاجتماعى ، وكانت بذرة المذاهب الاشتراكية والانفتاح على العالم المتحضر من غير قيود وكثرة البعثات إلى الخارج ، وكان الصراع الدائم بين القصر والشعب طلباً للدستور وحداً من الحكم الأوتوقراطى ؛ ولا ريب أن ثورة سنة ١٩١٩ ، بما بثته فى الأمة من رأى وفكر وإحساس بالكرامة وشعور عميق بالحاجة إلى تقليل الفروق بين الطبقات ، كانت إيذاناً وإرهاصاً بثورة الجيش فى سنة ١٩٥٢ .

وكانت هذه الثورة أيضاً تغييراً فى بناء المجتمع وبنيته ، لم تحدث من فراغ ، ولكنها جاءت ثمرة السنوات الطويلة التى سبقتها ، ثم استأنف المجتمع مسيرته بعدها متأثراً بها متفاعلا معها ومع ما فى داخله من تطلعات وما يستطيعه ويتهيأ له من إمكانيات . . . ثم جاءت هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ فكانت رجّة عنيفة أصابته فى الصميم ، وحملته على أن يعيد النظر فى الكثير . وجرت فى داخله وتحت السطح تيارات متعددة ، ظلت تعمل وتعمل إلى أن كانت الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فبدت أصالة الشعب وقدرته على امتصاص الهزيمة والمحنة وارتفاعه فوقها . . إن حرب أكتوبر لم تكن حادثاً غير المجتمع ، ولكنها كانت حصيلة تفاعل طويل استمر ست سنوات ، وكان حصادها أن استرد المجتمع ثقته بنفسه وقدرته على تخطى الهزيمة . . أما آثار حرب أكتوبر فلا تزال باقية لم تبلغ مستقرها بعد ، وقد تمتد إلى سنوات طويلة ؛ وكما أن آثار ثورة سنة ١٩١٩ ، وثورة سنة ١٩٥٢ وثورة التصحيح فى ١٩٧١ لا تزال تفعل فعلها فى المجتمع ، كذلك آثار حرب أكتوبر لا تزال تفعل فعلها فى المجتمع . . وليس صحيحاً أن المجتمعات تتغير بين يوم وليلة ، وليس صحيحاً أن حادثاً أو ثورة أو انتفاضة أو نصراً أو هزيمة ، تغير المجتمع بين يوم وليلة ، ولكن الصحيح أن هذه الحوادث الخطيرة تكون قمة تغير أو تطور لما سبقها من زمن وما أرهص به من مقدمات ، وتصبح فى ضمير الشعب والمجتمع عاملاً جديداً للتقدم والتغيير . . . إن المجتمعات تتغير فى بطء

شديد ، وأحياناً بصورة غير منظورة ، ولكن التغيير والتطور كلاهما سائر فى طريقه لا يتوقف ، ولا شك أن الحوادث الكبيرة تسرع بحركة التطور ، ولكنه لا يمكن أن يحدث بين يوم وليلة ، فلا بد له أن ينضج فى بطء حتى إذا جاء التغيير ثبت على أرض صلبة ولم يكن عرضة للنكسات .

وقد اعتبر الجنس البشرى نفسه منفرداً بين الكائنات وأن هناك بوناً شاسعاً بينه وبين الحيوان ، فللإنسان نفس وليست للحيوان نفس ، وهو يمتلك الذكاء وليس للحيوان مثله ، وهو متكلم والحيوان مخلوق أعجم ، ومع ذلك فإن كل هذه المميزات يمكن أن تكون موضع جدل ونقاش ، فمن الحيوانات ما يحس وله وجدان وفيه ذكاء ، ومنه ما يكاد يتحدث . . وإن كان الإنسان ينفرد بأنه مخلوق اجتماعى ، ورد الاعتراض بأن الحيوانات تتميز فى بعض صفاتها بروح الجماعة والقطيع .

والحق – كما يقول كنجسلى ديفد – أن الشيء الوحيد الذى ينفرد به الإنسان أنه وحده بين الكائنات الذى له ثقافة ، ومن هذا المنطلق تتعدد سائر الاختلافات والفروق بينه وبين الكائنات الأخرى . فذكاؤه يمكن أن يضرب عشرات المرات بتمتعه بميزة الثقافة ، وقدرته على الحديث ليست إلا فرعاً أو تفريعاً على ثقافته ، وحياته الاجتماعية تحكمها الثقافة . . فالثقافة هبة أصيلة تتفرع وتتشعب وتتسلل فى حياة الإنسان بالفضائل والمزايا التى تنفرد بها ، وتضيف بعداً جديداً للوجود وتجعل الإنسان شيئاً آخر غير الحيوان ، وهى تتشابك وتتفاعل بل تصنع كل مسالك الفكر والسلوك ، تتلقاها وتنقلها عبر أجيال من الأسلاف ، وتسلمها عبر المستقبل إلى أجيال قادمة ، انتقال دائب بالتصرف والعمل وليس بالوراثة ، إنها ما تتعلمه من الآخرين بالخطاب والحركة والمقال وليس عن طريق الوراثة . إن عش الطير الذى يبنيه نتاج الوراثة ، أما المبانى التى يقيمها الإنسان فتحددها الثقافة .

وبهذه المثابة كانت مصر طوال تاريخها مجتمعاً مثقفاً ، تطور وتغير بمقاييس ثقافية عريضة ، عرف منذ نشأته كيف يتبادل مع الآخرين العلم والمعرفة وكان له فى أدوار التاريخ الإنسانى دور الإنسان الأكثر تسامحاً والأكثر استقراراً والأكثر إيماناً .